هوامش

أصبحت تجارة الفحم رائجة بشكل كبير في سورية. ويتحدث مواطنون عن أن أشخاصاً يحظون بدعم يقفون خلفها، ويمنعون مديرية الأحراج والجهات القضائية من ملاحقة التجار

تزداد اعمال التحطيب الجائر في سورية (عمر حاج قدور/ فرانس برس)

جرائم التحطيب

سورية تفقد الأشجار بلا رادع

السويداء ـ **ليث أبي نادر**

لم تتوقف أعمال التحطيب الجائر عند حدود الأشجار الحرجية في سورية، بل تعدتها إلى الأشجار المثمرة، مثل الزيتون واللوز والرمان والتفاح، في مناطق عدة. ويتحجج مرتكبو هذه الجرائم بنقص الوقود، وانعدام سبل الإنتاج، والحاجة إلى تدفئة الأطفال، لكنها أدت إلى فقدان جزء كبير من الثروة الحرجية، خاصة في المناطق التي يطاولها البرد والصقيع خلال فصل الشتاء، مثل تلك في الجنوب.

يقول ممدوح البربور (ناشط الإعلامي في جنوب سورية) لـ«العربي الجديد»: «فُقد مشروع حراج أم الرمان الذي يقع أقصى الجنوب بالكامل نتيجة التحطيب والتواطؤ مع الحطابين، علماً أنه كان يضم أكثر من مليون شجرة تتنوع بين الصنوبر المثمر والسرو. ولم يكترث أحد لعواقب هذه الجرائم المتلاحقة بحق الأحراج الطبيعية في السويداء، مثل تلك في الكفر ووادي المظلم وظهر الجبل». ونقل موقع محلي عن خبير زراعي قوله إن «أكثر من مليون شجرة تعرضت للتحطيب بين بلدات أم الرمان وحوط والمنيذرة في الجنوب، والجزء الأكبر منها خلال العامين الأخيرين. ومعظم هذه الأشجار مثمرة، بينها الصنوبر والسرو واللوزيات». أيضاً تحدث الموقع نفسه عن أعمال تحطيب لأشجار زيتون عمرها أكثر من 40 عاماً في بلدة سليم شمالي السويداء.

في درعا القريبة من السويداء، يقول مزارع لـ«العربي الجديد»: «تستمر أعمال قطع الأشجار الحرجية وتزداد انتشاراً، خاصة في مناطق حوض اليرموك التي تبدو حالياً خالية من الأشجار بعد سنوات من التحطيب المستمر، فيما بدأت أحراج أخرى تتلقى المصير نفسه في تل شهاب وزيزون وغيرها. واللافت في هذه الأعمال أنها منظمة وتنفذها مجموعات مسلحة بهدف التجارة، وليس أصحاب الحاجة غير القادرين على شراء مازوت التدفئة أو الحطب». وشهدت أسعار الحطب المُعد للتدفئة ارتفاعاً غير مسبوق في محافظتي درعا والسويداء هذا العام. وزاد سعر الطن الواحد من الحطب عن 4,5 ملايين ليرة سورية (300 دولار)، فيما بلغ سعر ليتر المازوت الحر قبل بداية فصل الشتاء 20 ألف ليرة سورية (1,35 دولار)، وسط توقعات بارتفاعات أخرى نتيجة نقص التوريد في المحافظتين. ودفع ذلك بأشخاص كثيرين إلى اعتماد التدفئة على الحطب، باعتبارها الأقل تكلفة، فيما ارتفعت أسعار المدافئ إلى أكثر من الضعف، وتجاوز سعر تلك الصغيرة 800 ألف ليرة (54 دولاراً) والكبيرة بين 1,5 مليون (102 دولار) و5 ملايين ليرة (340 دولاراً). ويعتبر موظف في دائرة الزراعة بالسويداء، في حديثه لـ«العربي الجديد»، أنه «لم يعد مبرراً ارتكاب جرائم التحطيب في حق الطبيعة والبيئة، وأصبح من واجب الجميع والأهالي قبل الدوائر الحكومية التصدي لها، خاصة بعدما طاولت الأشجار المثمرة. والأكيد أن تقصير الحكومة وحاجة الناس للتدفئة من بين أسباب الظاهرة، لكن حماية الأملاك العامة واجب الجميع». يضيف: «استبشرنا خيراً بتولي مجموعات أهلية حراسة مناطق في ظهر الجبل، لكن هذا الإجراء غير كافٍ ويحتاج إلى مؤازرة الجميع، إذ أصبحت السويداء مناطق قاحلة، وحُرم الناس من أي مكان للتنزه. ويُهدد الوضع السيئ السائد الجميع بمخاطر بيئية وأمراض لم تكن في الحسبان».

إلى ذلك، أخذت أعمال التحطيب الجائر منحى آخر في الساحل السوري الذي يشهد مناخاً أكثر اعتدالاً ودفئاً خلال فصل الشتاء، باستثناء مناطق بعيدة عن الساحل. ووجد الحطابون أن فرص التجارة والربح كبيرة في أعمال التفحيم، فجهزوا عشرات الأماكن لنشر الأخشاب المحطبة وتفحيمها وضغطها بمكابس خاصة، ثم تغليفها وبيعها إلى أصحاب محلات النرجيلة أو الشواء. وبلغ سعر الكيلوغرام الواحد نحو 25 ألف ليرة (1,7 دولار)، ما يعني أن مبيعات أي مركز تفحيم بعشرات الملايين يومياً. يؤكد رئيس دائرة الأحراج في طرطوس (غرب)، فادي ديوب، عدم منح أي ترخيص لمزاولة التحطيب، وأن الدائرة تلاحق المخالفين، وأصدرت 218 محضر ضبط بمخالفات حرجية منذ بداية العام، من بينها 10 محاضر خاصة بالتفحيم و37 خاصة بالحرق، كما صادرت أكثر من 17 سيارة لنقل حطب. ويشير أيضاً إلى أن الحرائق التي طاولت المحافظة خلال العام الحالي أتت على 170 دونماً، وأن بعضها كانت مقصودة. ويقول علي الكردي لـ«العربي الجديد»: «يعتقد أبناء منطقة الساحل بأن وراء كل حريق صاحب معمل فحم. وهم يشاهدون نقل أعداد كبيرة من السيارات خشب الأشجار المحروقة بعد إطفاء الحرائق من دون أن تتعرض لمساءلة أو ملاحقة. وبالطبع يعرف من ينفذون مهمات التفحيم كيفية استغلال جذور الأشجار وأغصانها، خاصة تلك التي لم تحترق بالكامل في صناعة الفحم».

عموماً تتباين الآراء بين من يرون أن أعمال التحطيب جرائم في حق الطبيعة والبيئة ستنعكس سلباً على الصحة العامة والمناخ، ومن يتحدثون عن تقصير الدولة في تأمين وقود التدفئة وحماية الأحراج، في وقت يحتاج فيه الناس إلى التدفئة، وأيضاً إلى توفير متطلبات العمل والإنتاج على حساب الطبيعة والصحة العامة طالما أن النتائج واحدة، ولا آمال قريبة في إصلاح ما جرى هدمه.

باختصار

تطاول جرائم التحطيب في سورية أشجاراً مثمرة، ومن بين الأسباب التقصير الحكومي وحاجة الناس إلى التدفئة

■■■

جُهزت عشرات الأماكن لنشر الأخشاب المحطّبة وتفحيمها وضغطها بمكابس ثم تغليفها وبيعها

■■■

الحرائق التي طاولت طرطوس خلال العام الحالي أتت على 170 دونماً، وبعضها كانت مقصودة

وأخيراً

السخرية فعل مقاومة

سعدية مفرح

كتب غسّان كنفاني مرّة إن الكاتب «كي يستطيع أن ينتقد بسخرية، فإنه أولاً يجب أن يمتلك تصوّراً لما هو أفضل، أو لما كان يجب أن يكون». وتتجاوز هذه العبارة السخرية أداة أدبية بسيطة لتُظهر أن خلف كل نقد ساخر رؤية كامنة لعالم مختلف أو أفضل، فالسخرية، إذن، ليست مجرّد أداة تهكمية للتهجّم أو الانتقاد، بل سلاح المبدع الذي يرى الفجوة بين ما هو كائن وما كان ينبغي أن يكون.

وهذا يعني أن السخرية من أشكال النقد الحادّ، لكنها تختلف عن النقد المباشر في أنها تتسم بالخفّة والذكاء والظرافة، فهي تعبّر عن انتقادات لاذعة لكن بطريقة فكاهية أو ملتوية، تجعل المتلقّي يبتسم قبل أن يشعر بثقل الرسالة التي تحملها. لكنها، وهذا مهمٌّ، ليست فقط فضحاً لعيوب المجتمع أو المؤسّسات، بل محاولة لتقديم نقد بنّاء يوحي بما يجب أن يكون عليه الوضع، فهي لا تكتمل إلا عندما تتضمّن، ضمناً أو علناً، صورة بديلة أكثر عدالة أو منطقية. والكاتب الساخر، كما يفهمه كنفاني على الأقل، ليس مجرّد ناقد يكتفي بتسليط الضوء على السلبيات، بل صاحب رؤية مثالية، وإن بدَت غير قابلة للتحقّق في الواقع الراهن. وبهذا تصبح سخريته وسيلة مزدوجة؛ كشف للخلل القائم وإيحاء بإمكانية تجاوز هذا الخلل. هذا هو جوهر الأدب الساخر الرفيع الذي لا يكتفي بجلد الذات أو المجتمع، بل يحفّز على التأمل في ما يمكن أن يكون. ولطالما كان الأدب الساخر صوتاً للتمرّد في مختلف الثقافات، فقد استخدم أدباء عديدون، جوناثان سويفت في رحلات جلفر على سبيل المثال، السخرية لتوجيه نقد لاذع إلى أنظمة سياسية واجتماعية فاسدة، وفي الوقت نفسه، يقدّمون رؤى طوباوية ضمنية لعالم مثالي. وفي الأدب العربي، لا يمكن تجاهل السخرية في أعمال كتّاب، مثل يوسف إدريس ومحمد الماغوط، حيث تبدو كتاباتهم صرخة احتجاج مموّهة بالمرح والأسى.. ولمعنى آخر ضحك كالبكا، كما يقول المتنبي! وهو ما يخوّلها في جوهرها لفعل مقاومة، فهي تنبُع من شعور عميق بالخيبة تجاه ما هو موجودٌ، لكنها لا تتوقّف عند حدود الخيبة، فالكاتب الساخر، حتى في أحلك الظروف، يواصل إيمانه بقدرة الأدب على تقديم بدائل، ولو في الخيال. لهذا السبب، تتطلّب السخرية جرأة مضاعفة؛ جرأة في مواجهة الواقع، وجرأة في الحلم بتغييره.

ومن يسخر من الواقع، يفعل ذلك لأنه ما زال يؤمن أن هناك إمكانات ضائعة ينبغي تحقيقها. الكاتب الساخر، وفقاً لذلك، أشبه بفنان يحلم بلوحة مثالية، لكنه عالقٌ في واقع مليء بالعيوب. ومن هنا، تصبح السخرية أداة تفكير نقدي عميق، تشجّع القارئ على طرح أسئلة بشأن ما يمكن أن يتغيّر، وما هو دور الفرد في هذا التغيير. وعندما يواجه المتلقّي نصّاً ساخراً، فإنه لا يواجه فقط انعكاساً مشوّهاً للواقع، بل يواجه دعوة ضمنية إلى إعادة التفكير في هذا الواقع وإدراك احتمالاتٍ أخرى، ذلك أن الأدب الساخر يُبقي جذوة الأمل مشتعلة، حتى عندما يبدو كل شيءٍ محبطاً؛ لأنه يوحي بأن ما نضحك عليه اليوم يمكن أن يكون بوابة لتحوّلات أكبر غداً.

> من يسخر من الواقع يفعل ذلك لأنه ما زال يؤمن أن هناك إمكانات ضائعة ينبغي تحقيقها

والقول إن السخرية فعلٌ ناقدٌ يتضمّن بالضرورة أفقاً أخلاقياً يعكس الالتزام بتحقيق الأفضل، فغسّان كنفاني لا يتحدّث عن السخرية باعتبارها تهكماً عابراً، بل باعتبارها فعلاً أدبياً مسؤولاً ينطوي على قلقٍ وجودي، حيث يتساءل الكاتب باستمرار: كيف يمكن أن يكون العالم أكثر إنسانية؟ ليست السخرية في هذا السياق مجرّد هروبٍ من الألم، بل هي من أشكال الاشتباك الجادّ مع هذا الألم، ومن ثم محاولة تجاوزه.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,50**, Austria **€ 2,50**, Belgium **€ 2,50**, France **€ 2,50**, Germany **€ 2,50**, Holland **€ 2,50**, Italy **€ 2,50**, Spain **€ 2,50**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 10,00**, USA **$ 2,00**